أم عبد الله
«أسماء ذات النطاقين»

رضي الله عنها

obeikandl.com

obeikandl.com

أم عبد الله
«أسماء ذات النطاقين»

قال لي ولدي: ومَن التي بشرت بالجنة أيضاً يا أبي؟

قلت: إنها «أسماء ذات النطاقين» يا بني، والدها أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وأمها قتيلة بنت عبد العزى وزوجها الزبير بن العوام وأختها عائشة أم المؤمنين، زوج رسول الله ﷺ، وابنها الشهيد المصلوب عبد الله بن الزبير عُمِّرت مائة سنة دون أن يغيب شيء من عقلها أو يسقط لها سِنٌّ ولا ضِرس.

دخلت الإسلام في وقت مبكر متأسية بأبيها صاحب رسول الله ﷺ، وحين عزم رسول الله ﷺ على الهجرة إلى المدينة كان والدها قد سأله الصحبة، فخرجا معاً إلى غار «ثور» وبقيا فيه ثلاثة أيام، فكانت أسماء خلالها تأتيهما بالطعام، ولمّا لم تجد شيئاً تربط به كيس الطعام شقت نطاقها شقين، فربطت الكيس بأحدهما واحتفظت بالثاني الذي لا تستغني المرأة عنه، حتى إذا علم رسول الله ﷺ بما صنعت دعا الله أن يبدلها بنِطاقها نطاقين في الجنة، ولذا دعيت من يومها ذات النطاقين.

فهنيئاً لأم عبد الله ذلك الوسام الرفيع الذي خصها به رسول الله ﷺ. كانت أسماء معروفة بحسن تصرفها ورجاحة عقلها، وآية ذلك أن جدها أبا قحافة علم ـ قبل أن يسلم ـ

بهجرة ابنه أبي بكر مع رسول الله ﷺ، فجاء إليها ـ وكان ضريراً ـ وقال لها: لعل أبا بكر قد فجعكم بماله بعد أن فجعكم بنفسه!

وبحكمتها المعهودة، وضعت في الكوة التي كان أبو بكر يخبىء فيها المال، شيئاً من الحصى وألقت عليها ثوباً، ثم جاءت بالشيخ الضرير، وجعلته يضع يده على الثوب وقالت: كلا يا أبت، لقد ترك لنا مالاً وفيراً هاهنا، ولم تكن تريد منه المساعدة بسبب ما هو عليه من الشرك.

قال: وماذا فعلت «أسماء» بعد ذلك يا أبي؟

قلت: بعد أن استقر رسول الله ﷺ وصاحبه الصديق في المدينة أرسلا إلى مكة من يحضر أهلهما، وكانت أسماء حاملاً، فانطلقت إلى المدينة تحمل المهاجر الصغير بين أحشائها حتى إذا وصلت المدينة واستقر بها مقامها، وضعت مولودها، وهو أول مولود للمهاجرين تشهده المدينة، وقد سبَّبَ مولده صدمةً لليهود الذين كانوا يشيعون أنهم وجدوا في كتبهم أنه لن يولد للمهاجرين إلى المدينة أي مولود، لكن الواقع كذبهم، وكشف افتراءاتهم، وأحرجهم إلى حد كبير.

وأرسل المولود إلى رسول الله ﷺ فتلقاه بسرور، ثم حنَّكه وسماه: عبد الله، وانطلق المسلمون يطوفون به في شوارع المدينة فرحين بقدومه.

وراح عبد الله ينمو ويكبر في ظلال رعاية والديه الكريمين، حتى إذا ظهرت ملامح وعيه وذكائه، أخذ والده المقدام الزبير بن العوام يردفه خلفه حين خروجه إلى لقاء الأعداء ليدربه على فنون القتال، حتى يصنع منه فارساً يخلف

أباه الذي كان عمر بن الخطاب ﷺ يعدله بألف رجل.

كان عبد الله يستمد قوة المراس من أبيه، وكانت أسماء تُعِدُّه ليكون خير خلف لخير سلف، صحيح أنها امرأة ولكنها ليست كباقي النساء، لقد كانت تتمتع بعزيمة لم تتوفر لدى كثير من الرجال.

وكانت ذات النطاقين تلتزم بتعاليم الدين الحنيف، وتستجيب لأوامر رسول الله ﷺ تلقائياً؛ لأن أوامره ونصائحه ﷺ كانت مفعمة بالخير العميم الذي يجعل حياة الناس كريمة عزيزة لا تشوبها شائبة ولا ينال منها تكدير.

وذات يوم دخل رسول الله ﷺ على عائشة أم المؤمنين ﷺ فقال لأسماء، وقد رآها عندها وعليها ثياب رقاق:

«يا أسماء، إذا بلغت الفتاة المحيض فلا يصح أن يبدو منها إلا هذا وهذا»، وأشار إلى وجهه وكفيه ﷺ.

وتلقت أسماء تلك النصيحة الغالية من خير معلم ونصيح، والتزمت بها؛ لأنها ترغب الكمال في دينها الذي هو عصمة أمرها، وأعز ما لديها، ولم تكن تلك النصيحة، وقفاً على أسماء بل كانت موجهة إلى كل النساء، ممن أقَلَّت الأرض وأظلَّت السماء.

وكيف كانت معاملة أسماء لزوجها الزبير قال: ومعاملته لها؟

قلت: كان ﷺ مثلاً في الشجاعة والبطولة والفداء، وكان فذاً في السماحة والكرم والسخاء، غير أن فيه حِدَّة على النساء وشدة في التعامل معهن، أما هي، فقد صبرت على فقره دهراً

حتى أغناه الله، وكانت تخدمه بنفسها وترعاه، وتسوس فرسه وتطحن له النوى من أجل علفه، حتى بلغت حد التفاني، وأما في تربية الأولاد فقد بذلت وسعها، واستنفذت جهدها، وكفاها أن ربَّت بطل الأبطال، وسيد الرجال عبد الله بن الزبير.

قال: ليتك تحدثني عن كرمها يا أبي!

قلت: بكل سرور يا بني، لقد كانت أسماء كريمة سخية إلى حد كبير، واسمع إلى ابنها عبد الله يقول: ما رأيت امرأتين قط أجود من خالتي عائشة وأمي أسماء لكن جودهما مختلف.

أما خالتي فكانت تجمع الشيء إلى الشيء، فإذا توفر لديها ما يكفي عمدت إلى قسمه بين ذوي الحاجات، وأما أمي فكانت لا تبقي شيئاً إلى الغد.

أجل يا بني، إنها لم تكن تطيق حبس ما يأتيها من المال إلى الغد حتى تنفقه، ولا عجب في ذلك، فالسخاء طبع أبيها الصدِّيق ﷺ، والجود شيمة زوجها الزبير ﷺ، لقد كان بسط الكف خلقاً لها لا تستطيع أن تتخلى عنه، وسجية لا سبيل إلى التخلص منها، إنها ذرية مجبولة على الكرم والعطاء بغير حدود.

قال: أرجو يا أبي أن تزيدني علماً بهذه الأسرة التي تميزت بالشجاعة والسخاء، وجهاد الأعداء، لا يخور لها عزم، ولا تلين لها قناة.

قلت: كان الزبير ملازماً لرسول الله ﷺ في حِلِّه وترحاله، ومرافقاً له في جهاده.

وذات ليلة كان إلى جانب النبي ﷺ، فأغفى ﷺ وبقي الزبير يحرسه، ويدفع الأذى عنه، ولما استيقظ رسول الله ﷺ

فرآه، قال له: «**يا أبا عبد الله، لم تَزُلْ؟**» أي: لم تبرح مكانك؟ قال: لم أَزُل، بأبي أنت وأمي يا رسول الله! فقال النبي ﷺ: «**هذا جبريل يقرئك السلام، ويقول لك: أنا معك يوم القيامة حتى أَذُبَّ - أدفع - عن وجهك شرر جهنم**».

وما إن سمع الزبير رضي الله عنه تلك البشرى العظيمة حتى انطلق يسابق الريح إلى زوجه أسماء ليزفها إليها، وهكذا تهيأت للزوجين، أجمل بشريين يبتغيانهما من هذه الحياة، ولقد أجاد حسان بن ثابت حين وصف الزبير فقال:

أقام على عهد النبي وهديه
حواريه والقول بالفعل يعدل

أقام على منهاجه وطريقه
يوالي وليَّ الحق، والحق أعدل

هو الفارس المشهور والبطل الذي
يصول إذا ما كان يوم محجَّل

له من رسول الله قربى قريبة
ومن نصرة الإسلام مجد مؤثل

فكم كربة ذبَّ الزبير بسيفه
عن المصطفى والله يعطي ويمنع

وقد وصف أبو نعيم في «حليته» الزبير وأجاد حين قال:

الزبير بن العوَّام، الثابت القوَّام، صاحب السيف الصارم، والرأي الحازم، كان لمولاه متكيناً، وبه مستعيناً، قاتِلُ الأبطال، وباذِلُ الأموال.

وحين خرج الزبير مع صاحبه طلحة بن عبيد الله لقتال

علي بن أبي طالب يوم الجمل، نادى علي عليه فقال:

يا زبير، نشدتك الله، أتذكر يوم مَرَّ بك رسول الله ﷺ ونحن بمكان كذا، فقال لك: «**يا زبير، ألا تحب علياً؟**»

فقلت: ألا أحب ابن خالي، وابن عمي، ومن هو على ديني؟

فقال لك: يا زبير، أما والله لتقاتلنه وأنت له ظالم! فقال الزبير رضي الله عنه: نعم، أذكر الآن، وكنت قد نسيته، والله لا أقاتلك.

وامتنع الزبير عن متابعة القتال، ووقف يصلي، فجاءه عمرو بن جرموز فقتله وهو بين يدي ربه، ثم ذهب إلى علي وهو يظن أنه سيسر بفعلته، فلما استأذن عليه، لم يأذن له وقال ما سمعه من رسول الله ﷺ: «**بشر قاتل ابن صفية بالنار**»، ولما أدخل سيف الزبير على عليٍّ بكى وقال:

سيف طالما والله جلا به صاحبه الكرب عن رسول الله ﷺ.

وحزنت أسماء لفقده، وحزن عبد الله على أبيه حزناً لا مثيل له، وعزم على أن يتّبع سنته في الكرم والسخاء، ومقارعة الأعداء، ووثّق صلته بالله سبحانه وتعالى أكثر فأكثر فكان في الليل قانتاً قائماً، وفي الهواجر مجاهداً صائماً، وكانت الخشية من الله نصب عينيه، ولما سئل عنه ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان قارئاً لكتاب الله، متبعاً سنة رسوله ﷺ، قانتاً لله، صائماً في الهواجر ـ الأيام الحارة ـ من مخافة الله، ابن حواريِّ رسول الله ﷺ، وأمه أسماء بنت الصدّيق وخالته عائشة زوج رسول الله ﷺ فلا يجهل حقه إلا مَن أعماه الله!

وكانت أسماء لا سيما بعد رحيل زوجها الزبير موضع سر ابنها وملاذه، يلتمس نصحها، ويستنير برأيها، لما يعرفه عنها من رجاحة العقل، وسداد الفكر، وطلب منه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أن ينضوي تحت لوائه، فأبى عليه ذلك، واستقل بالحجاز، وأعلن نفسه أميراً للمؤمنين، فدانت له مصر والعراق وخراسان وبعض بلاد الشام إضافة إلى الحجاز.

لكن هذا الأمر لم يرق ليزيد بن معاوية الذي تولى الأمر بعد وفاة أبيه، فوجّه إليه يزيد جيشاً يقوده الحصين بن نمير لإخماد ثورته، والقضاء على تمرده، واقترح الحصين على ابن الزبير أن يعقدوا اجتماعاً لبحث الخلاف القائم بينهما، وفي هذه الأثناء وصلت الأنباء إلى مكة بوفاة يزيد.

وعند ذلك عرض الحصين أن يذهب ابن الزبير معه إلى الشام، ووعده الحصين أن يستخدم نفوذه الكبير هناك من أجل أخذ البيعة لابن الزبير.

غير أن عبد الله أبى الموافقة على مقترح الحصين؛ لأنه كان يرى أن جيش الشام يستحق القصاص بسبب غزوه الآثم لمدينة رسول الله ﷺ بطلب الأمويين.

ثم تمكّن مروان بن الحكم من القضاء على فتن الشام، واستطاع أن يستعيد مصر، ولما خلفه ابنه عبد الملك وجّه أنظاره إلى العراق الذي يحكمه مصعب بن الزبير، وتمكّن عبد الملك من الانتصار على قوات مصعب والقضاء عليه.

وكان استشهاد مصعب نازلة كبيرة نزلت بعبد الله؛ لأنه كان شديد المحبة له، كثير الاعتماد عليه، وشعر بخسارة فادحة

حلّت به بعد مصرعه.

واتخذ بعد ذلك عبد الملك القرار بضرورة القضاء على تمرد عبد الله بن الزبير على حكم بني أمية، وأمَّر الحجاج بن يوسف الثقفي على رأس جيش قوي، وكلّفه بتنفيذ قراره.

كان الحجاج فاتكاً قوياً لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلاً ولما وصل بجيشه إلى مشارف مكة، ضرب عليها حصاراً شديداً يمنع وصول الطعام والشراب إلى أهلها حتى يدفعهم إلى التخلي عن مناصرة ابن الزبير.

ولما طالت أيام الحصار، أخذ أتباعه ينفضون عنه وأصبح أعوانه يتناقصون، وعلى الرغم من ذلك، كان بين جيشه فرقة كبيرة من الأحباش المتمرسين بالقتال، وكانوا من أمهر الرماة لديه، ولما سمعهم يتحدثون عن الخليفة الشهيد المظلوم عثمان بن عفان ﷺ، بما لا يليق، وقف عليهم عبد الله معنفاً ثم قال: ما أحب أن أستظهر على عدوي بمن يبغض عثمان، ثم صرفهم عنه وهو في أشد الحاجة إلى مساعدتهم مع وجود الحصار.

وهكذا كان عبد الله يرفض كل ما يخالف قناعته، ولا ينفذ إلا ما يؤمن به إيماناً راسخاً، وكان ﷺ ينشد:

ولا ألين لغير الحق أسأله
حتى يلين لضرس الماضغ الحجر

وضيَّق الحجاج الخناق على ابن الزبير ومَن صمد معه، ففزع عبد الله إلى أمه الحكيمة، ينشدها أن تمده برأيها، فلما دخل وسلَّم عليها، ردت عليه السلام وقالت: ما الذي جاء بك

ومنجنيقات الحجاج تدك الحرم دكًّا؟

قال: ألتمس المشورة عندك، قالت: وبمَ تستشيرني؟ قال: لقد خذلني أصحابي وانفضّ عني الأهل والولد، ولن يحتمل من بقي معي إلا ساعة أو ساعتين، ورسل بني أمية يساومونني على الدنيا، إذا ألقيت السلاح، وأعطيت البيعة لعبد الملك بن مروان، فما ترين يا أماه؟

وانتصبت العجوز ـ ذات المائة عام ـ لتقرع أسماع ولدها بكلمات أقوى من أزيز الرصاص وقالت: هذا شأنك، وأنت أدرى بنفسك، فإن كنت على حق، وقد خرجت من أجله فاصبر كما صبر أصحابك الذين قتلوا تحت رايتك، وإن كنت تريد الدنيا، فلبئس العبد أنت، هلكت، وأهلكت رجالك، قال: فإني مقتول لا محالة، قالت: ذلك خير من أن تستسلم إلى غلمان بني أمية ليلعبوا برأسك، قال: لست أخاف أن يقتلوني، ولكن أخاف أن يمثلوا بي! قالت: لا يؤلم الشاة سلخها بعد ذبحها.

وكانت تلك الكلمات التي سمعها ابن الزبير من أمه، قد أمدته بشحنة هائلة من العزيمة والقوة والإباء، ثم تقدم إليها ليعانقها ويودعها، ولما لمست جسده ـ وكانت قد فقدت بصرها ـ قالت: ما هذا يا بني؟ قال: درعي، قالت: ما هذا لباس من يريد الشهادة، فخلعها عنه، ثم سألها ألَّا تحزن عليه، فقالت: إنما أحزن إذا قتلت في باطل، ثم ودّعها وانطلق، بعد أن طلب منها الدعاء له.

انضم ابن الزبير إلى مَن بقي من أصحابه، وخاض قتالاً ضارياً، ومعركة شرسة غير متكافئة بين الحق الذي يحمله والباطل الذي ساوموه عليه، ولم تغب الشمس حتى انضم إلى

كوكبة الشهداء الخالدين.

ولم يكتف الحجاج بقتله بل قطع رأسه وعمد إلى صلبه ثم أرسل إلى أمه أسماء حتى تأتيه، فأبت، فأعاد إليها الرسول وقال: لتأتيني أو لأبعثن إليك من يسحبك من ضفائرك قالت: لن آتيه حتى يبعث من يسحبني من ضفائري، فاضطر أن ينطلق إليها، فلما دخل عليها قال: كيف رأيتني صنعت بعدوِّ الله؟ فردت عليه بأروع بيان وأبلغ لسان: رأيتك أفسدت عليه دنياه، وأفسد عليك آخرتك، ثم قالت: أما إن رسول الله ﷺ حدثنا: أن في ثقيف كذاباً ومبيراً ـ أي: مهلكاً ـ فأما الكذاب فرأيناه، وأما المبير فلا إخالك إلا إياه! ولم يحر الشقي جواباً، ثم انصرف عنها.

ولم تعش ذات النطاقين بعد عبد الله إلا أياماً معدودات ثم انتقلت إلى رحمته تعالى، فما عنده خير وأبقى، لمن عرفوا حقه، وكانوا من المتقين.